التشاؤم

فى شعر عبد الرحمن شكرى

١

منذ وجد الإنسان وهو يعانى أزمة الحياة وما فيها من خير وشر، وورد وشوك، وأمل ويأس، ونور وظلمة، وسرور وحزن، فليست حياة الإنسان مشرقة دائماً ولا مظلمة دائماً، بل تلتقى فيها الصفحتان، تارة تكون نقية صافية وتارة تكوى كدرة قاتمة. ومردُّ ذلك فى جملته إلى ضعف الإنسان وقصوره إزاء الكون من جهة وإزاء مطامحه من جهة أخرى، أما الكون فإنه يشعره دائماً بأن قدرته محدودة وأنه إن حقق مطالبه أو بعضها فى الحياة فالموت له بالمرصاد ولا بد أن يختطفه فى بعض الساعات طالت حياته أو قصرت، وأما مطامحه فإنها تتجاوز كل حد وهو لا يستطيع نيلها جميعاً، بل لا بد من أن ينال بعضها ويكفّ نفسه عن بعضها الآخر، فليس كل ما يريده يمكنه الظفر به، بل لعل الحياة تعود فتسلبه ما أعطته.

وكثير من الناس تتنازعه هاتان القوتان من الكون ومطامحه ويمضى فى حياته دون أن يفكر فيهما أو يبحث ويستقصى، فهو يعيش حياته دون محاولة لإدراكها و ما يغشاه فيها من بلاء ومحن، ولكن يوجد دائماً من يحاولون فهم الحياة والوقوف على كنهها فيحارون حيرات مختلفة، يحارون فيما يصيبهم من شرور وفيما يقف دون مطامحهم من سدود، ويحارون فى مصيرهم ومصير الإنسان ولماذا يُدْفَعُ إلى الموت، وقد يغلبهم أثناء تفكيرهم اليأسُ والقنوط، فإذا هم متشائمون وإذا كل ما حولهم يبعثهم على التشاؤم الشديد.

ونحن نجد أسراباً من هذا التشاؤم فى أقدم عصور الشعر العربى:

فى العصر الجاهلى ، فقد كان بين الجاهليين من فكر فى الأيام وما يأتى به الدهر من رزايا ، بل كان منهم من فكر فى القضاء وأحكامه وأن الإنسان لا يستطيع منها خلاصاً ولا فراراً، وأين يفر أو يخلص ؟ إن حياته كلها فى يد القدر وهو يسيطر عليها ويصرفها كما يشاء، لا رادّ لأمره ولا لحكمه ، فحكمه نافذ ، وقد حُكم عليه أن يموت آخر الأمر كما مات من سبقه من الناس . ويردد عدىّ ابن زيد والأعشى وأضرابهما هذه الأفكار ، وأن فوق الإنسان قوة تغلبه وتقهره، ولا محيص له من الاستسلام لها والرضا بقضائها .

وانتشر نور الإسلام فى الجزيرة ولمعت أضواؤه فى العالم العربى الكبير ، فأزال ما على عيـــون العرب من غشاوة التفكير فى مستقبل الحياة بعد الموت وأبدلهم من القلق والحيرة فى المصير طمأنينة وأمناً ، ولكن لا يدور الزمن دورة أو دورات حتى يغلب الطمع على الناس وتقوم الثورات والفتن ويعم السخط فى كل مكان ، وتنشأ أحزاب الخوارج والشيعة كما ينشأ التفكير فى مصلحة الجماعة وكيف يتحقق العدل فيها . وينشأ أيضاً التفكير فى القدر وصلة الإنسان به ،وهل هو مخيَّر فيما يأتى من الأمر أو هو مجبر مسيَّر ، وتكون مذاهب المرجئة والجبرية والقَدَرية ، ويكون تفكير واسع فى حقائق الحياة والناس ، فقد كثرت سيئات الحكم الأموى وما استتبعت من ظلم وعسف ، وكثرت الفروق بين المحكومين من العرب والموالى وما استتبعت من نعيم وبؤس ، بل من حرمان وشظف عيش فى أكثر الأحيان . وينشب تشاؤم واسع فى نفوس الشعراء، يُرَدُّ بعضه وخاصة عند الخوارج والشيعة إلى اليأس من الحكم، ويرد بعضه ، وخاصة عند الموالى ، إلى التفاوت الواسع بينهم وبين العرب ، ويتضخم فى النفوس إحساسها بالشر، ويجرى ذلك كله على ألسنة الشعراء، فهم يفكرون فى الحياة وفى السلطان الأعلى الذى يسيرها ويتحكم فى الناس وفى حياتهم وشئونها المختلفة .

ونتقدم إلى العصر العباسى ، عصر الاعتزال والفلسفة والشك والزندقة ، فتنفتح أبواب لا تكاد تنتهى من الجدال والحوار فى مشاكل الحياة وصلة الإنسان

بالقضاء ، ويكثر من يُقتَلون على الإلحاد والزندقة ولكنهما يشيعان ، ويشيع معهما القلق والحيرة فى الحياة . ويُغرق بعض الشعراء حيرته وقلقه فى الخمر والمجون ، بينما يتحول كثيرون وعلى رأسهم أبو العتاهية إلى التنفير من الحياة ومتاعها ، فالحياة زائلة ومتاعها زائل وعلى الإنسان أن يفكر فى مصيره وفى الموت الذى ينتظره راضياً أو كارهاً . وما متاع الحياة وما نعيمها إلا غرور ، بل لو أنك تدبرتَ فيها لم تجدها إلا شقاء وبؤساً وألما ، فليس فيها ما يرضى ولا ما يسر وإنما فيها ما يسخط ويحزن . وتستبد بأبى العتاهية هذه الأفكار وما يماثلها ، فالحياة شر وهى لا تستحق حبًّا ولا إقبالا ، بل تستحق الكره والإعراض ، والعاقل من يأخذ للموت عدته وأهبته .

ونخرج إلى القرن الثالث الهجرى فيزداد جو العصر اكفهرارا ويزداد القنوط واليأس ، فقد اختلت الحياة العباسية اختلالا واسعاً وثار الزنج على مواليهم وأحرقوا البصرة وسقطوا على سادتهم قتـــلا وفتكاً . وعمت الفوضى وعم الاضطراب ، وعم الشعور بالفروق الهائلة بين الناس بعضهم وبعض ، كما عم التشاؤم وانتشر فى النفوس . وخير من يصور ذلك ابن الرومى ، وحقًّا أنه كان مختل الأعصاب ، ولكن من الحق أيضاً أنه ثمرة العصر فقد كان العصر نفسه مختلا مضطرباً ، وإن شئت قل إنه كان فاسداً ، فتلاءم فساده وفساد المزاج عند ابن الرومى ، واستطاع أن يعطينا صورته كاملة حتى فى حياته ، فقد عاش شقيًّا محروماً ، وشعره عويل وصراخ من التعاسة والشقاء والإحساس العميق بالألم واليأس الشديد .

ونمضى إلى القرن الرابع ، فيصل الاختلال الاجتماعى والسياسى أقصاه ، وتقوم ثورات القرامطة فى البحرين والعراق ، وتنتشر الفتن فى كل مكان ، وتسوء حياة الناس سوءاً شديداً ، فقد اضطرب حبل الأمن اضطراباً لم تشهده قبل ذلك البلادُ العربية ، بل إنها لم تعرف عصراً من عصورها الماضية يشبه هذا العصر وما ساد فيه من فساد ، أشبه اللهب فهو يأتى على كل شىء فى الحياة ولا يبقى ولا يذر . وقد أصبح الناس فى عمياء من أمرهم ومن حكامهم

وطبيعي أن يكون الشعر فى هذا العصر أو هذا القرن صورة من نفوسهم . فهو شعر أسود حزين ، ليس فيه رضاً ولا ما يشبه الرضا ، وإنما فيه الكآبة والقلق والتشاؤم والسخط ، فالشر يشيع فى كل مكان والظلام ينتشر فى كل أفق ، والناس فى حيرة من أمرهم وحياتهم لا يدرون أين المفر . والمتنبي هو الشاعر الذى تجمعت فى صدره وفى قلبه هذه الأحاسيس القاتمة ومعانيها المظلمة ، وقد أخذ يرددها فى شعره منذ انطلق لسانه به فى شبابه ، وظل يرددها حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ، وكان يردد معها تشاؤماً واسعا لا فى حقائق الناس السياسية والاجتماعية وحدها ، وإنما أيضاً فى حقائق الحياة والموت ، فكل ما فى الكون عنده موشح بالسواد، وهو يلحِّن ذلك كله على قيثارته ألحانا شجية ، تعبر خير تعبير عما كان يقع على الناس فى عصره من أثقال وهموم .

وتناول منه القيثارة أبو العلاء ، فزاد فى ألحانها ألحاناً ، بل زاد فى أوتارها أوتاراً ، فقد أصبح التشاؤم عنده عقيدة وسلوكاً ، بل أصبح مذهباً وفلسفة ، فتشاؤمه ليس كتشاؤم المتنبي ، تعبيراً عن مجتمعه والناس من حوله فحسب ، بل هو تعبير عن آراء تكونت له من قراءاته ومن ظروفه بالإضافة إلى ظروف مجتمعه ، وهى آراء يدين بها فى تفكيره كما يدين بها فى سلوكه ، فيحرم نفسه من مُتَع الدنيا فى الطعام والزواج والأولاد، بل إنه ليدعو من حوله إلى إيقاف التزاوج والتوالد ، حتى تنتهى الحياة الإنسانية التعسة ، وينتهى هذا الشقاء الذى يُضنى الإنسان فى الأرض ، ويقال إنه أوصى أن يُكْتَبَ على قبره :

هذا جناه أبي علـ ـيّ وما جنيتُ على أحد

ولعله لم يؤمن بشيء كما آمن بأن الموت هو الخلاص السعيد من تلك الحياة البغيضة التى يحياها الناس والتى يتجرّعون فيها الغصَص والآلام .

obeikandi.com

٢

ولعل مصر لم تعرف فى عصورها المختلفة شاعراً متشائماً ضاق بكل ما حوله حتى بنفسه كما عرفت فى عبد الرحمن شكرى ، وهو ممن تثقفوا ثقافة عميقة بآدابنا العربية والآداب الغربية ، وقد نشر سبعة دواوين بدأ بأولها فى سنة ١٩٠٩ وانتهى بآخرها فى سنة ١٩١٩ وكلها تصور لنا قصة سوداء من التشاؤم الحزين الممض ، وكأن الحياة وكل ما يتصل بها محنة واسعة ، وهو يسلط مشاعره وأفكاره على هذه الحياة ، لعله يستطيع أن يفهمها أو يقهرها ، ولكن أنّى له ؟ إنها أقوى وأعمق من كل فكر وشعور ، فيشفق ويقلق ويفزع ، ويشقى بإشفاقه وقلقه وفزعه ، ويحاول ما وسعه أن يخلص من ذلك كله ، ولا يجد سبيلا إلى الخلاص ، فقد تراكمت الظلمات من حوله واسودت الدنيا فى عينه ، بل اسودت نفسه وتعقدت تعقداً شديداً ، تعقداً يشبه أن يكون محنة .

وقد وضع شكرى فى أيدينا مفاتيح هذه المحنة فى كتاب ألفه على لسان صديق باسم « الاعترافات » ، نشره سنة١٩١٦وهو يرمز لهذا الصديق بالحرفين « م.ن. » . وللمازنى الفضل فى بيان الصلة بين هذا الكتاب ومؤلفه الحقيقى شكرى ، فقد كتب عنه مقالات فى كتاب « الديوان » ، أظهر فيها العلاقة الأكيدة أو الوثيقة بينه وبين الكتاب وأنه اعترافات شخصية له ، اعترافات صريحة لا تحمل أى زيف أو تمويه . وحين نقرأ الكتاب نقف على طائفة من المؤثرات التى أثرت فى حياة شكرى النفسية ومدى ما شقى به من آلام مضنية ، وهو يستهله بتعريفنا بصديقه ، وهو إنما يعنى نفسه ، يقول :

« كان رحمه الله (هكذا) — شابًّا يحب القراءة والتفكير ، وكانت تلوح فى عينيه علامات السأم والحزن والتفكير ، وقد تقلصت شفته السفلى تقلص السخر ، ولكن كان يلوح على وجهه بالرغم من ذلك أنه كثير الحنان

رقيق القلب ، وأحياناً كنت لا ترى فى وجهه شيئاً من الحزن والألم ، وفى بعض الأحايين كان وجهه مثل السماء التى تراكمت سحائبها وتلبدت غيومها . وكان كثير من الناس يسيئون به الظن،فهم أساءوا فهمه ، فأساء فهمهم كما هى الحال بين الناس قاطبة ، وكان أحياناً شديد التواضع وأحياناً شديد التكبر . كان لا يعرف كيف يعاشر الناس ويداريهم ويأخذ ما صفا ويتغاضى عما كدر ، ويحتال للحياة ولاستجلاب السعادة ، فضاقت بنفسه الصحراء بعد أن ضاقت بها المدن كما يقول هو نفسه » .

ويحدثنا شكرى أن صاحبه ولّى وجهه نحو مجاهل السودان فهام بها لأن صحراءها أشبه بالأبد الذى عشقه ، وأودع عنده مذكراته ، لينشرها على الناس حين ييأس من عودته ، وقد يئس فعلا ، إذ سمع أنه « صار يهيم فى فيافى السودان ، حتى وصل إلى بلاد نيام ، فأكله أهلها — رحمة الله عليه — لقد كان يحتقر الإنسانية ، فانتقمت منه بأن أكله أبناؤها ، ولكنه انتقام يثبت أنه كان مصيباً فى احتقاره إياها . وقد زعم أناس أنه لم يمت وأنه توغل فى أواسط إفريقية إلى موطن الزنوج ، فأسرته قبيلة منهم تدعى قبيلة الشناجة ، ولكنهم أعجبوا بسكونه وعبوسه وقلة مبالاته بما يقع حوله من أمور الحياة ، فاتخذوه إلها ، حاسبين هذه الصفات من صفات الله ، فإذا صح ذلك كان صديقى إلهاً لا يزال حيّاً يرزق » .

وشكرى فى هذه السطور الأولى من اعترافاته يرينا إلى أى حد استولى عليه الجزع والحيرة والضجر حتى إنه ليطلب عالماً آخر غير عالمه وبيئة أخرى غير بيئته ، فيرحل من حياة المدن التعسة التى يحياها فى مصر هذه الرحلة الخيالية إلى عالم الصحراء ، لعله يشفيه من الحياة اليائسة التى يحياها والتى ضاق بها ضيقاً شديداً ، وهو يعلن أنه قد برم بالحياة الإنسانية البشعة التى يحياها برما انتهى به إلى احتقارها ، وأنها على وشك أن تثأر لنفسها منه إن لم تكن قد ثأرت فعلا . ويُشيع شكرى فى ذلك كله ضرباً من السخر بالناس ومعتقداتهم فى آلهتهم ، فصاحبه إما أكله أهل نيام أو اتخذوه إلها يعبدونه ويقربون له القرابين!

وشكرى يصرح بأن صاحبه قد ضاق ببيئته ضيقاً انقبضت له نفسه، حتى فكر فى الرحيل عنها، بل حتى رحل فعلا ، فضيقه ويأسه وتشاؤمه لا ينبع من نفسه وحدها وإنما ينبع من مجتمعه قبل كل شيء ، فمجتمعه كله نكر وشر قد فسدت فيه النفوس فسادا . ونحن لا نستطيع أن نفهم هذا الشعور حق الفهم إلا إذا رجعنا بذاكرتنا إلى مصر فى مفتتح هذا القرن وما كان يجثم على صدرها من غمة الاحتلال الإنجليزى ، وما كان يتلاحق عليها من الكوارث والفواجع والأخطار .

لقد كانت مصر تجتاز دورة قاتمة فى حياتها ، بل لعلها أكثر دورات حياتها يأساً ، وبؤساً ، وكان الشباب الطامح من أمثال شكرى يشعر شعوراً عميقاً بآلام الحياة التى يحياها وطنه وأثقالها ، ويرى إلى أى حد قد فسدت الحياة فيه فساداً لا يدع أملاً فى أن يحقق الشباب آمالهم ، لما يقيدهم به المستعمر وأعوانه من قيود وأغلال ، ولندع شكرى نفسه يصور لنا ذلك على لسان صاحبه ، يقول : « الشباب المصرى فى حالة أمتنا الاجتماعية الحاضرة عظيم الأمل ولكنه عظيم اليأس ، وكل منهما فى نفسه عميق مثل الأبد ، والسبب فى ذلك أن حالتنا الاجتماعية تستدعى شدة الأمل وشدة اليأس . وما زلت أجد بين حالة الأمة الاجتماعية وبين نفوس أفرادها رابطة متينة . فالشباب المصرى يكثر من إساءة الظن ، وهى صفة اشتهر بها المصريون ، والسبب فى سوء ظنه عصور الاستبداد الطويلة التى مرت على مصر ، فإنها أبقت هذه الإرث فى نفوس الأفراد ، لأن الاستبداد يبعث سوء الظن . والشباب المصرى ضعيف العزيمة كثير الأحلام والأطماع والأمانى ، يمضى أيامه فى الأحلام بدل أن يمضيها فى مزاولة الأعمال . وكذلك الخوف فإن شجاعة الشباب المصرى شجاعة متقطعة مبتورة ، شجاعة تستحى من نفسها ، وأما خوفه فهو مبدأ عام . والشباب المصرى عنده ميل عظيم إلى مزاولة الأعمال العظيمة المجيدة ، ولكنه يعجز عنها . . وهو شديد الإحساس، ولكنه يبكى فى ضحكه ويضحك فى بكائه، وهو كثير

الشكوى والتضجر قليل الصبر — مثل صاحب الاعتراف — تحز فى نفسه قيود القدر المحتوم ، فيجتهد أن يضعها عنه فلا يقدر ، فيزداد حزناً ويأساً ويفكر ، ولكن تفكيره غير منتظم ، وهو كثير الحيرة والشك بالرغم من غروره ، يترك ما يعنيه لما لا يعنيه ، لا يعرف أى أفكاره وعاداته القديمة خرافات مضرة ولا أى أفكاره وعاداته الجديدة حقائق نافعة ، من أجل ذلك يضره القديم كما يضره الجديد ، فهو من قديمه وجديده غريق بين لجتين أو مثل كرة فى أرجل المقادير » .

وهذا الفصل من اعترافات شكرى بالغ الأهمية ، إذ يقرر فيه أن تشاؤمه مستمد من تشاؤم مجتمعه ، فقد طغت موجات اليأس طغياناً جارفاً فى تلك الأيام السود ، أيام الاحتلال ، على جميع الشباب وجميع النفوس ، وهو طغيان قد فل العزائم وثبط الهمم وأمات الآمال والقلوب ، فلم يعد الشباب يستطيعون الإقدام والعزم الصادق والهم البعيد ، بل أصبحوا فريسة الإحجام والتردد والخنوع ، بل لقد أصبحوا فريسة الشك الأسود الذى يحيل الحياة كلها سوادا ، بل لقد أصبحوا غرقى فى يَمٍّ لا ضفاف له .

ويمضى شكرى فى اعترافاته فيصور لنا منبعاً آخر فى تشاؤمه ، أو قل محنة أخرى . إذ يقول إنه استهل حياته مؤمناً بالخرافات متعبداً أشد ما يكون التعبد ، ولكن ذلك لم يكن يمنعه من اقتراف الإثم ، ولندعه يتحدث عن ذلك بلسانه .

« لقد كنت فى صغرى كثير الاعتقاد بالخرافات وكنت ألتمس العجائز من النساء أسمع قصصهن الخرافية حتى صارت هذه القصص تملأ كل ناحية من نواحى عقلى حتى صارت عالماً كبيراً ملؤه السحر والعفاريت . ثم أتى علىّ بعد ذلك دور التعبد ، إذ كنت كثير الصلوات كثير الأوراد ، أكثر من قراءة كتب المتعبدين فكنت أقرأ فيها عن العبد الصالح والعبد الفاسق وعن عقاب الله الفظيع . كانت هذه الكتب تشرح لى عقاب الله بالغاً من الفظاعة حداً لا يطاق ، فكنت أقوم من النوم مذعوراً حينما كنت أحلم بذلك العقاب ..

ولم يمنعنى هذا التعبد الشديد عن مواقعة الشهوات بقدر شدة التعبد ! »

ولم يكن هذا كل محنته ، فقد كانت حياته محنته الكبرى ، وكأنى به قرأ أبا العلاء واستقر فى نفسه ما كان يتخذه فى تشاؤمه من خطوات عملية ، فإذا هو يحرم على نفسه أن يتخذ الزوج ويرزق الولد ، فالحياة من حوله شر لا خير فيه ، وهو لم يشعر فيها براحة نفس ولا بهدوء ضمير ، فحرى به أن لا يجنى على أبنائه ما جناه أبوه عليه .

كان التشاؤم يتعمق نفس شكرى ، وكان يقرأ فى الشعر العربى ، فكان يؤثر ابن الرومى والمتنبى وأبا العلاء ممن عانوا هذه الأزمة من قبله ، وكان يقرأ فى الآداب الغربية ، فكان يؤثر شعراء الحركة الرومانسية الذين أصابهم نفس الداء ، وكان يجد فى قراءة أولئك وهؤلاء لذة لا تقدر ، فأمعن فى تشاؤمه وفى سخطه ويأسه وحيرته وقلقه وشكه . وكانت هذه المنابع أو المؤثرات كلها تؤثر فى نفسه تأثيراً عنيفاً ، وكان دقيق الحس مرهف الشعور ذكى القلب ، فتحول يبحث الحياة الإنسانية وشرورها التى استفحلت واستشرت ، بل لقد تحول يبحث نفسه ويحللها ، فنفسه صورة للنفس البشرية ، وهى حرية بتسجيل كل ما يضطرم فيها من أحاسيس ومشاعر . ولم يسجل ذلك فى قصيدة أو قصائد قليلة ، وإنما سجله فى سبعة دواوين ، أظهر ما يميزها وأقوى ما يسمها روح التشاؤم الذى يبلغ حداً بعيداً من اليأس القاتل ، وهو يأس يستحيل خواطر وقصائد كثيرة منوعة ، منها ما يتناول الحب ووصف الطبيعة وبعض الأحداث الجارية ، ومنها ما يتناول عوامل القلق والجزع فى نفسه ، بل ما يغوص فى أعماقها غوصاً ، وإنه ليصرخ فى الجزء الأول من ديوانه :

لقد لفظتنى رحمةُ الله يافعاً فصرتُ كأنى فى الثمانين من عمرى

ويعلو الصراخ فى الجزء الثانى من الحب والمرأة وخيبة أمله فيهما وفى المساعى البائرة ، ويكثر من وصف الليل وظلماته ، ويصف ضوء القمر ولكن فوق

القبور ، ويتحدث عن غربته فى دنياه وإحساسه الكئيب بالوحشة ويقول إنه عليل :

إن أكن عائشاً فعيشُ عليل الـ ... نفس يَذْوى مثل الرجاء العقيم

وهى علة لا شفاء لها ، لأنها علة النفس ، علة تعزّ على الأطباء والأدواء ، وتتراءى الدنيا فى عينيه كأنها وجه إبليس ظلمة وقتمة ، فتروعه وتفزعه :

ويصرخُ أحياناً فيحكى صُراخه ... صراخ العباب الغَمْرِىّ لُجَجِ البحر

يئنُّ أنين الريح عند خفوتها ... ويعوى عواء الذئب فى المهمه القفر

ويفتتح الجزء الثالث بالحديث عن الحب والموت والحياة والموت ، فالموت يطل عليه من كل مكان ، وكأنه يأخذه من جميع أطرافه ، بل يأخذ الناس جميعاً :

وما الدهرُ إلا البحر والموتُ عاصفٌ ... عليه وأعمـارُ الأنام سَفينُ

ويتمنّى لو نزل به الموت ، فماله من الشقاء معين ، وتضيق به الدنيا فى القصيدة الثالثة ، حتّى لكأنه على قيد الحياة دفين ، ويتزايد ضيق صدره وقلق نفسه ، فيكثر من تصوير خوفه وفزعه وسخطه على الأصدقاء وغير الأصدقاء ، فالناس جميعاً سواء ، لا أمن معهم ولا اطمئنان فى دنياهم ، بل حتّى فى آخرتهم ، وهنا يبلغ التشاؤم أقصاه ، فينظم قصيدته : « حلم بالبعث » ، وهى تطرد على هذا المنوال :

رأيت فى النوم أنى رَهْنُ مظلمةٍ ... من المقابر مَيْتاً حوله رِمَم

ناءٍ عن الناس لا صوتٌ فيزعجنى ... ولا طموحٌ ولا حُلْمٌ ولا كَلِمُ

مطهّرٌ من عيوب العيش قاطبةً ... فليس يطرقنى هَمٌّ ولا ألم

ولست أشتى لأمرٍ لستُ أعـرفه ... ولست أسعى لعيش شأنه العدمُ

فلا بكاءٌ ولا ضحْكٌ ولا أمـلٌ ... ولا ضميرٌ ولا يأسٌ ولا نَدَمُ

والموت أطهرُ من خُبْث الحياة وإن ... راعتْ مظاهره : الأجداثُ والظلمُ

obeikandl.com

ما زلت فى اللحد مَيْتاً ليس يلحقنى ... نَبحُ العدو وبى عن نَبْحه صَمَمُ
مرتْ علىَّ قرونٌ لست أحفظها ... عَدًّا كأنْ مَرَّ بى الآبادُ والقدمُ
حتّى بُعثتُ على نَفخ الملائك فى ... أبواقهم وتنادتْ تلكم الرِّمَمُ
وقام حولى من الأموات زِعْنِفَةٌ ... هوجاء كالسيل، جَمٌّ لُجُّهُ عَرِمُ
فذاك يبحث عن عَيْنٍ له فُقدتْ ... وتلك تُعوزها الأصداغ والرَّمَمُ
وذاك يمشى على رجْلٍ بلا قَدَمٍ ... وذاك غضبانُ لا ساقٌ ولا قدمُ
ورب غاصب رأسٍ ليس صاحبَه ... وصاحبُ الرأس يبكيه ويختصم
ويبحثون عن المرآة تخبرهم ... عن قبح ما تترك الأجداث والعدم
جاءتْ ملائكةٌ باللحم تعرضه ... ليلبسَ اللحمَ من أضلاعنا الوَضَمُ
رقدتُ مستشعراً نوماً لأوهمهم ... أنى عن البعث بى نومٌ وبى صَمَمُ
فأعجلونى وقالوا قُمْ فلا كسلٌ ... يُنجى من البعث ، إن الله محتكم
قد متَّ، مامتَّ فى خيرٍ وفى دعةٍ ... وقد بُعثت فماذا ينفع الندم
أستغفر الله من لَغْوٍ ومن عبثٍ ... ومن جنايةِ ما يأتى به الكَلِمُ

وهى سخرية مرة بالناس ورذائلهم التى لا تفارقهم حتى بعد مماتهم ويوم يبعثون ؛ فإنهم لم يكادوا يسمعون نفخ الملائكة فى الصور ، حتى تخاطفوا أجزاءهم وأشلاءهم كما يتخاطفون عيشهم فى دنياهم ، فأوزار طمعهم لا تفارقهم حتى فى آخرتهم ، وسيئات نهبهم وظلمهم لا تغادرهم حتى فى مبعثهم . ونظل مع شكرى فى وسط هذا العباب الطافح بالأحزان لا فى الجزء الثالث من ديوانه فحسب ، بل أيضاً فى الجزء الرابع ، ونقرأ فى مطالعه قصيدة المجاهد الجريح ، وفيها يقول :

هو العيش حرب والحياة جهادُ ... وإن حياة العالمين سُهادُ
وليست نفوسُ الناس إلا أسنَّةً ... لها كل يوم مطعنٌ وجِلاد

وليست نفوس الناس إلا سيوفهم سيوفٌ ولكن ما لهن غِماد
فلا تعذلونى إن ألِمْتُ فإننى جريحٌ من الأحداث وهْى صِعاد
ولا تعذلونى إن حزنت فطالما أصِبتُ ولى بين الكُماة فؤاد

ويتولى كاسفاً مقهوراً ، فقد بُنِى الإنسان من رذائل حقيرة ، يحار فى تعليلها ، ولا يلبث أن يجد فى عقيدة التناسخ ما يكشف العلة ، فهؤلاء الأراذل الذين يراهم ، أو هذا الرذيل بعينه إنما كان فى خلقه الأول حماراً ناهقاً :

روحه كانت قبلُ فى ناهقٍ رِيضَ بإسراجٍ وإلجامِ
فلسفةٌ لا شك فى صدقها فلم تكن أضغاث أحلام

ففيه كثير من طباع الحمار الدنيئة ، والكارثة كل الكارثة هو هذا الازدواج بين طبيعة الحمار الحسيسة والصورة الإنسانية المرئية .

وينظم شكرى الجزء الخامس من ديوانه فى هذا العناء النفسى ، بل إن المحنة لتشتد به ، فيخال أنه هو نفسه المذنب الذى يجب أن يُقْتَصّ منه ، ويعاقب عقاباً أليما ، لما أتى من منكرات ومخزيات ، وهو لا ينسى جريمته حتى فى نومه على نحو ما يقول فى قصيدته : « المجرم » :

يرى الناس أن النوم أمٌّ رحيمةٌ ولكنّ نوم الجارمين عقابُ
يسلّ علىّ الحُلْمُ أسيافَ نقمةٍ فأحلامُ نومى كالجحيم عذاب

ويشعر شعورا عميقا بأن الشؤم يلازمه وأنه لا مفر منه إلا أن يخلص من الحياة ويستقبل الموت ، وما فائدة الحياة التى يحتمل فيها كل هذه المشقات ويتجشم فيها كل هذه الصعاب ؟ . إنه لحرى به أن يستريح من عنائها وعذابها وهذا النحس الذى يسايره منذ صباه ، يقول فى « شقوة العيش » :

حياتى أما للنَّحْس حدٌّ ولا مَدَى فإنى كرهت العيش فى أول الصِّبا
كأنى ربيب النحس ليس يجوزنى فيا شرّ ما راعٍ يجور إذا رَعى
فيا موتُ أقبلْ لا كإقبال رائعٍ مريراً كطعم العيش يؤلم مَنْ حَسَا

ويمضى شكرى فى الجزء السادس من ديوانه مغيظاً محنقاً على الحياة والأحياء ، يصورهم فى أشنع صورهم من المعايب والرذائل ، ويحاول أن يلتمس له مخرجاً من هذه الظلمات التى ترامت من حوله ، فيفجعه الواقع بكل ما فيه من نقائص ومساوئ ، ويطغى عليه جزعه وقلقه ويأسه ، فيفر من الناس فراراً ويهجرهم هجراً ، لا عودة بعده :

سأهجر هذا الخلقَ لا هجْرَ عائدٍ ولكنّ يأسا حين لم يُبْقِ مطمعا

ونشعر كأن اليأس أصبح لهيب نار متقدة فى أعماق نفسه ، ويبلغ به ذلك أن ينظم قصيدته « بيت اليأس » وفيها يصور نفسه قد بنى لنفسه داراً فى الحياة يبغى فيها العيش الآمن ، ولكن غراب القضاء سبقه إليها ، وأخذ ينعب فيها ، حتى صار :

كمن بنى بالتراب بَيْتـاً فانهـار حتى غـدا ضَريحاً

ولا يسأم شكرى فى جزئه السابع تكرار هذه النغمات الحزينة ولا يملها ، وكأنه يريد أن يحس غيره ما أحسه من هذا البؤس العظيم . ومن رائع شعره فى هذا الديوان قصيدته : « الملَك الثائر » وهو يحكى فيها قصة ملَكٍ ثار على ربه وعصاه ، لما قرن به الخير على الأرض من شرور ، وهبط الملَك من الملأ الأعلى إلى الدنيا يحاول أن يكف الشر عنها ويملأها براً وخيراً ، ولكنه لم يكد يمضى فى دعوته الناسَ إلى التخلص مما يتخبّطون فيه من شرور وآثام وخطيئات ، حتى ردوه عن غايته رداً قبيحاً ، رده أولا الأشرار ، ولكنه مضى مخلصاً فى دعوته ، فلم يلبث الأخيار أن هبُّوا فى وجهه . حينئذ يعرف أنه قد أخفق وأنه لا سبيل إلى أن يُصلح البشرُ من أنفسهم ، فيصعد إلى الملأ الأعلى يائساً باكياً لعصيانه ربه ، ويناديه إبليس أن تلك طبيعة الحياة وأنها مزيج من خير وشر أو شرور ولا يمكن أن تخرج عن طبيعتها .

٣

على أنه ينبغى أن نعود فنخفف من حدة هذه الصورة التى صورنا بها عبد الرحمن شكرى فى تشاؤمه فإنه لم يكن يبغى أن يصرف الناس عن العمل والأمل دفعة واحدة ، إنما هى ظروف الحياة التى كانت تعانيها مصر حينذاك ، وهى نفسها الظروف التى عانتها الأمم أحياناً قديماً وحديثاً ، فنشأ عندها هذا الأدب الأسود الحزين ومن قبله دفعت الظروف السياسية والاجتماعية ابن الرومى والمتنبى وأبا العلاء إلى ما يشبه تشاؤمه . وقد كان وطنه يشقى بالاحتلال الإنجليزى ، وكان الشباب كما صور لنا ذلك آنفاً يشعر بالعجز والقصور ، بل كان يائساً يأساً خانقاً .

وإذن فتشاؤم شكرى كان تشاؤماً طبيعياً ، يصور النفس المصرية وما كان يضنيها من آلام وهموم فى هذا التاريخ أو هذه الحقبة التى نظم فيها شعره . ومع ما أكثرناه من الحديث عن يأسه تتفلّت أضواء من الأمل فى ظلمات هذا اليأس ، وتنفذ منه كما ينفذ السهم ، مصورة ما يكتنّ فى ضمير الشعب المصرى من كفاح لغاصبيه مهما أعنتوا فى ظلمه ومهما طغوا وبغوا عليه ، إذ تبقى دائماً جذوة متقدة تحت الرماد تنتظر اللحظة والفرصة المهيئة ، فتندلع شواظاً من نار على رأس الغازين أو المحتلين . ولعل من الطريف أن نقف عند هذا الجانب فى شعر شكرى ، حتى تتضح نفسه من أطرافها ، ولنضرب لذلك أمثلة مختلفة من دواوينه وقصائده ، فمن ذلك أن نراه فى بعض أبياته يذهب إلى أن الخير يغلب على الإنسان وعلى ما فيه من شرور .

صرّح الخير والأذى فيـــه والخـــيرُ أغلبُ
فإلى العُجْم نسبةٌ وإلى الله يُنْسبُ

فطبيعة الإنسان الحيوانية هى التى تدعوه إلى الشر ، ولا تلبث طبيعته الروحية

أن تكفها عن غوايتها وتردها إلى سبيل الهدى . وحتى اليأس نراه يميز فيه بين يأس قانط يبعث على العجز والخمول ويأس آمل يبعث على العمل :

وفى اليأس يأسٌ يبعث المرء بعثةً إلى الغاية القصوى من السعى والجدِّ

وقد أكثر من بيان أن الشر كالنار ، يمر به الإنسان فلا يحترق ، وإنما يتطهر من أوضاره وأدرانه على نحو ما نرى فى مثل قوله :

لا يطعم السغدَ الشهىَّ وشهده من لا ترود فؤادَه الآلامُ

وقوله :

ألم تر أن القُرْط ليس بحليةٍ على الأذْن حتى تألم الأذْن بالثَّقْبِ

وقوله :

إذا أنت ما ذقتَ من ضُرّها أتعرف ما الخير من شرها

وقوله :

وإن ضياء العيش يزهو رُوَاؤه لأنْ حاطه بين الأنام ظلامُ

وقوله :

اصبرْ لعل النَّحْسَ ، فى لونه إذا دجَا ، ظِلٌّ لدانى النعيمْ
لعل دمع النحس دُرٌّ لـه يُسْلَكُ فى عقد الرخاء النظيم

فالشر قد يجر الخير ويجلب النفع ، ومن لم يعرف الشر لم يعرف دواعيه ولا كيف يحترس منها ويتقيها ، وأولى بمن لم يعان صنوفه أن يرتطم به ويقع فيه . وقد دعا إلى طموح المرء وأن يقتحم دنياه اقتحاماً ويأخذها غلاباً فى غير قصيدة من قصائده كما نرى فى مثل قوله :

أعاظمُ الناس فى اللأواء كم صبروا إن العظيم عظيم السعى والعمل

وقوله :

وعشْ مع هذا الكون كوناً معظَّماً ... وكن فى قواه بين ناهٍ وآمرِ

وقوله :

يرقى الوجود بعيش الصالحين له ... من ليس يدركهم عجزٌ ولا كلَلُ
إن الحياة جهادٌ لا خفاء بـــه ... وليس يُفلح إلا الأغلبُ البطل

وقوله :

وتعظم نفسُ المرء حتى كأنهـــا ... عوالم فيهـــا الكائنات تدورُ

وقوله :

لولا طماحُ الحالمين وهمهم ... بقىَ الورَى كالتربة الغبْراءِ
الحالمون بكل مجـــدٍ خالدٍ ... سامى المنال كمنزل الجوزاء
فحياتهم وفعالهم ودمـــاؤهم ... مثلُ الهدى وكواكب الإسراء

فتشاؤم شكرى لم يكن تشاؤماً محرقاً ، يريد صاحبه أن يحرق الحياة من حوله فتصبح رماداً أو هباء ، وإنما كان تشاؤماً خيراً طامحاً ، حتى ما قد يبدو عنده من شك فى الدين والعقيدة نراه يعود فيخفف من حدته ويُسلم أمره لربه ، يقول :

جهلنا فما ندرى على العيش ما الذى ... يراد بعيشٍ نحن فيـــه نُقادُ
سوى أن عيش المرء بالشك فاسدٌ ... وأنَّ يقينًا فى الحياة رشاد

فهو يرد الحيرة والشك إلى الجهل الذى يبهم الطريق ويعمِّيه أمام الإنسان ، وأنه إذا زالت عن بصره غشاوة هذا الجهل تبين طريق الهدى والرشاد ، فأيقن بإلهه ومصيره وما ينتظره من ثواب أو عقاب . ويناجى ربه بقصيدة عنوانها : « صوت الله » يفتتحها بقوله :

أنصتْ فى الإنصات نجوى النفوسْ ... فإن صوت الله دانٍ كليمْ

وكلنـــا موسى لـــدى ربـــه وكل روحٍ حين يصفو عظيمْ
وإنما نفسُ الفتى معبـــدٌ يضيئهـــا الله بنـــورٍ عميم
والنفسُ بَيْتُ الله إن طُهِّرتْ والنفسُ، إن لم تَصْفُ، مثل الجحيم

وبذلك كان تشاؤم شكرى لا تضيق به النفس ولا تنقبض ، لأنه ليس مظلماً خالص الظلام ، بل هو كالسحاب تلمع فيه بروق أمل كثيرة ، أمل يشد العزائم ويدفعها إلى الإقدام ، هو تشاؤم يغلب فيه السواد ولكن للبياض فيه مكانه ، إذ يشرق الأمل ويضيء فى كثير من جوانب شعره وقصيده .

obeikandl.com